



The Post-colonial Discourse Translation in The Algerian Novel Written in French : The Path Back to the Origin



Received: 31/03/2024; Accepted: 13/05/2024

Lamia OUAMEUR *

Constantine 1 University « Frères Mentouri » (Algeria), ouameur.lamia@gmail.com

الكلمات المفتاحية:

الأدب ما بعد
الكولونيالي؛
الفرنكوفونية؛
الهوية؛
الترجمة؛
التوطين؛

ترجمة الخطاب ما بعد الكولونيالي في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية: مسار العودة إلى الأصل

انعكف المختصون في الحقل الترجمي مؤخرا على دراسة و تحليل ترجمات النصوص الأدبية ما بعد الكولونيالية، لما تتضمنه من أبعاد سياسية، و أيديولوجية، و اجتماعية، و تاريخية و ثقافية تطرح مسألة الانتماء و الهوية القومية، لا سيما في الأدب الجزائري ما بعد الكولونيالي (أدب ما بعد الاستعمار)، الذي شهد إبداع جيل من المؤلفين الجزائريين الذين تناولوا قضايا مجتمعهم -الذي كان يرزح تحت وطأة الاستعمار- مستعملين لغة المستعمر كوسيلة لمناهضته و مقاومة أعماله التمييزية التي لطالما مارسها ضدّ الشعب الجزائري بغية طمس هويته الوطنية .

سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية، تسليط الضوء على ترجمة الخطاب ما بعد الكولونيالي في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية.

Abstract

Specialists in the field of Translation Studies showed recently a great interest to the field of post-colonial literature, through the study of some translated literary texts that encompass social, ideological, cultural, historical, and political dimensions which ask the issue of belonging and the national identity, notably in the Algerian post-colonial literature that knew the birth of a new generation of writers who wrote in French- the language of the colonizer- to express the sufferings of the Algerian people during the colonial period as a way to face the racial discrimination acts of the French against the Algerian people who represents the “ Other “.

In the present paper, we will try to highlight the translation or the transfer of the post-colonial speech in the Algerian novel written in French.

Keywords:

Post-colonia;
Literature
Identity;
Francophony;
Translation ;
Domestication

* Corresponding author, e-mail: ouameur.lamia@gmail.com

Doi:

I - مقدمة

مهّدت موجة الاستعمارات التي شهدتها عدة بلدان في شتى أقطار المعمورة لميلاد ظواهر أدبية جديدة و أنماط كتابية غير معهودة، شكلت منعطفا هاما في تاريخ الأدب العالمي؛ حيث تغيّرت البنى الفكرية والأنساق الأدبية، وتشكّلت بنى فنية جديدة تضع مسألة الهوية الثقافية على المحكّ، لا سيما في الأدب المغربي الذي ظلّ لردح طويل من الزمن أدبا أصيلا ثابت المعالم، مجسدا للثقافة العربية و معبرا عن الهوية العربية الإسلامية بلغة الضّاد، إلى أن استعمرت بعض بلدانه - على غرار تونس، و المغرب، و الجزائر - من قبل المستعمر الغربي الذي كان هدفه الأسمى طمس الهوية العربية الإسلامية لهذه الشعوب، و سعى إلى تغريب هذه الدول و جعلها منصهرة تحت بوتقة الامبريالية الأوروبية

يعدّ الأدب الجزائري واحدا من الآداب التي تجسّد بشكل جليّ مدى سيطرة و هيمنة الفكر الاستعماري على الكتابة الأدبية، حيث رافق الغزو العسكري الذي شنته جيوش المحتلّ على أرض الجزائر، غزوا ثقافيا كانت أولى خطاه فرض التعليم باللغة الفرنسية، فاتجهت فئة من أبناء الشعب الجزائري نحو التعلّم بلغة العدوّ مجبرين غير مخيّرين، و ظهر جيل جديد من المؤلفين الذين قاوموا الاستعمار بطريقتهم الخاصة، و حاولوا إحداث ثورة قلمية ترمي إلى نقض المركزية الأوروبية التي أقصت الأجناس البشرية غير الأوروبية و همّشت مجتمعاتها و نشأ ضرب جديد من ضروب الأدب اصطلح عليه بـ " الأدب المغربي" أو " الأدب الفرنكوفوني " الذي استعملت فيه لغة المستعمر كأداة للإبداع الأدبي، و كوسيلة للتعريف بالقضية الوطنية، و هو الفضاء الذي يعبر من خلاله " الأنا " عن نفسه بلغة " الآخر " الذي تربطه به علاقة نديّة، الأمر الذي يطرح العديد من الإشكالات التي تطرحها ثنائية اللغة-الثقافة في شتى الحقول الدراسية على غرار علم النفس، و علم الاجتماع، و التاريخ، و الانثروبولوجيا، و كذا الحقل الترجمي الذي يشكل موضوع دراستنا في هذه الورقة البحثية؛ إذ سنقوم بتسليط الضوء على المناهج التي يتبعها المترجم في ترجمة الخطاب ما بعد الكولونيالي الوارد ضمن الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، نظرا لما تتضمنه من تداخلات لغوية و ثقافية، و ما تعكسه من تمثيلات لعلاقة الأصلاحي بالدخيل، و ما تبرزه من تجلّيات لمقاومة ثقافة الأنا في ظلّ ثقافة الآخر.

سنحاول من خلال دراستنا هذه الإجابة على التساؤلات التالية: ما هي الاستراتيجيات أو الآليات المستعملة في ترجمة الخطاب ما بعد الكولونيالي في الرواية الجزائرية الفرنكوفونية؟ ما هو المسار الذي تسلكه القيم الدلالية المتضمّنة في الخطاب ما بعد الكولونيالي لدى رجوعها إلى أصلها؟ ما هو المنهج المعتمد في ترجمة الخطاب ما بعد الكولونيالي في الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية؟

1- النظرية الأدبية ما بعد الكولونيالية:

تعد النظرية ما بعد الكولونيالية Postcolonialism حقلا معرفيا حديث النشأة، حيث تعود إرصاصاته إلى خمسينيات القرن العشرين ثم تبلورت أطره المعرفية و المنهجية في أواخر السبعينيات على يد " الثالث المقدّس " الذي يتمثّل في كل من إدوارد سعيد Edward Said، هومي بابا Homi Bhabha و غاياتري سبيفاك Gayatri Spivak الذين أسسوا هذه النظرية.

تعنى هذه النظرية أساسا بدراسة تأثير المستعمر المعاصر على البنى الثقافية، و الاجتماعية، و السياسية، و الإقتصادية للدول المستعمرة، و هي " طريقة في النظر إلى القوة بين الثقافات، و التحوّلات النفسية الاجتماعية التي تحدثها ديناميات الهيمنة و الإخضاع المتوائمة، و الانزياح الجغرافي و اللغوي، و هي لا تحاول أن فسّر كل الأشياء في هذه الدنيا، بل تقتصر على هذه الظاهرة الواحدة المهملة، السيطرة على ثقافة معينة من قبل ثقافة أخرى." (روبينسون، 2009)

تعدّ النظرية ما بعد الكولونيالية من أهمّ النظريات الأدبية و النقدية ذات الطابع الثقافي و السياسي، حيث باتت نقطة تقاطع مختلف الحقول المعرفية، و شملت دراسات الجندر و المرأة، و الجنوسة، و الأعراق، و التاريخ، و الهوية و المقاومة، و ركّزت على " خصوصية " مجتمعات البلدان التي كانت مستعمرة؛ و من ثمة، فهي تربط الخطاب بالمشاكل السياسية المطروحة في العالم، بما في ذلك ثنائية الشرق و الغرب، و محاولة استكشاف مواطن الاختلاف بينهما، و تحديد أنماط التفكير و النظر إلى كليهما معا.

2- الأدب ما بعد الكولونيالي:

أحدثت موجة المابعديات (ما بعد الحداثة، ما بعد البنيوية، ما بعد الاستعمار.... إلخ) تغييرا في مسار الدرس الأدبي و النقدي، حيث عرفت الدراسات الأدبية في الثمانينيات، ظهور النظرية ما بعد الكولونيالية - أو ما بعد الإستعمارية- التي انعكفت على دراسة آداب الحواضر التي خضعت للتجربة الاستعمارية، حيث يقول إدوارد سعيد في هذا الشأن: " هناك لزوم لاقتفاء الأثر السياسي للكتابة، عبر قراءة ثقافية تعيد النقد إلى العالم، فالنص هو حادثة ثقافية لا بد من ربطها

بمظاهر الحياة السياسية و الثقافية". (سعيد، 2000)، هذا يعني أنّ النصوص الأدبية هي المرآة العاكسة لثقافة، و عادات، و تقاليد الشعوب و الأدب هو الناقل الرئيسي للتجارب التي عاشتها الأمم على مر العصور و الأزمان على حدّ تعبير المنظر و الناقد أنطوان بارمان Antoine Berman لما اعتبر أنّ " كل كتابة أدبية تهدف إلى نقل تجربة عالم معين". (Berman, 1999)

لقد حظي هذا المصطلح بتحديدات متعدّدة، و هذا راجع لتعدّد الحقول المعرفية التي تناولته و قاربته، ففي الدرس الأدبي النقدي يقترن هذا المصطلح بمصطلح " ما بعد الحداثة " حيث " ترافق النهوض بالاهتمام بما بعد الكولونيالية مع نهوض ما بعد الحداثة " (نجم، 2009) كونهما يشتركان في قاسم مشترك يتمثّل في النهوض ضدّ المركزية الأوروبية التي تقزم و تقصي، و تهّمش الأجناس البشرية غير الأوروبية، و تعاملها باستعلاء، حتى طالت نزعتها الإستعمارية الموروث الثقافي لهذه الشعوب، على حدّ تعبير الباحث بيل أشكروفت عندما أكّد بأنّ مصطلح " ما بعد الكولونيالية " يشمل كل ثقافة تأثرت بالعملية الإمبريالية منذ اللحظة الكولونيالية حتى يومنا الحالي. " (عيشونة، 2021)، بعبارة أخرى، هي عملية سيطرة الثقافات الفاتحة على الثقافات المفتوحة، و مدى استجابة أو خضوع هذه الأخيرة لذلك القسر، و لما كان الأدب هو الفضاء الذي تتجسّد من خلاله الثقافات، و الإطار الذي تتحدّد من خلاله علاقة الأنا بالآخر، ظهر الأدب ما بعد الكولونيالي الذي يشمل " آداب كل البلدان الإفريقية و استراليا، و بنغلاديش، و كندا، و بلدان الهند و ماليزيا، و مالطا، و نيوزلندا، و الباكستان و سنغفورة، و بلدان جزر المحيط الهادي و سيرلانكا." (أشكروفت، 2006)، كما نجد مصطلحات أخرى تدلّ على الآداب التي كانت تحت سيطرة و هيمنة الإمبراطورية البريطانية على غرار " آداب الكمنولث Commonwealth's Literature " و " الآداب الجديدة New Literature "، و لقد تناولت هذه الآداب مخلفات الفترة الاستعمارية، و تأثيرها على الشعوب المهمّشة و المنبوذة، التي ترفضها المجتمعات العرقية، و تحاول هذه الآداب العثور على قاسم مشترك بين مجتمعات العالم الثالث التي تأسست على قوميات مختلفة نهضت كلها في مواجهة الاستعمار الأوروبي، و ما تركه من آثار، كما أنّ " شكلها الخاص ينبثق من خبرة الكولونيالية و أنها أكدت نفسها عن طريق إبراز التوتّر القائم مع القوى الإمبراطورية، و تأكيد اختلافها مع فروض المركز الإمبراطوري، و هو ما يجعلها متميزة بوصفها ما بعد كولونيالية." (أشكروفت ب، 2006)

3- الأدب الجزائري ما بعد الكولونيالي و خصائصه:

لطالما اعتبرت الكتابة الأدبية في الجزائر إبان و بعد الفترة الإستعمارية، كوسيلة اتخذها المؤلفون الجزائريون في مقاومة المستعمر الفرنسي ثقافيا، في ظلّ حركة المدّ التحرري ضدّ هذا الغازي المحتل الذي كان يعمل على نحو مخاتل؛ حيث يخترق الدوائر الثقافية و بناها من أجل النّيل من مقوّمات الهوية الجزائرية، معتمدا على تجنيد مجموعة من المستشرقين الذين كانوا على دراية كافية بالإسلام و بلغة الضّاد، حيث سعوا إلى التغلغل داخل عقلية و فكر المجتمع الجزائري، و لمّا تأكدوا من تشبّثه بهويته الثقافية العربية الإسلامية، فرضوا التعليم باللغة الفرنسية، من خلال تشييد المعاهد و الجامعات تحت راية نشر مختلف العلوم و الفنون و الآداب لاستكمال الهيمنة العقلية و الفكرية، و التاريخ يشهد على هذا المنهج المخادع الذي كان يعتمد على المستعمر الفرنسي، و لعلّ أحسن مثال عن هذا هو تأسيس نابوليون خلال حملته بمصر عام 1798 " لمعهد مصر " الذي كان بمثابة الكتّيب العلمية للجيش الفرنسي، حيث قال إدوارد سعيد (Said، 2005) بهذا الخصوص:

«L'institut, avec ses équipes de chimistes, d'historiens, de biologistes, d'archéologues, de chirurgiens, et de spécialistes de l'Antiquité, était la division savante de l'armée. Sa tâche n'en était pas moins agressive : mettre l'Egypte en français moderne. »

" كان المعهد يشتمل على فرق مختلفة من كيميائيين، و مؤرخين، و علماء البيولوجيا، و علماء الآثار، و جراحين، و مختصين في العصور القديمة، وكان هؤلاء يشكّلون الفرقة العلمية للجيش العسكري، و كانت مهامها لا تقلّ عدائيّة عن مهام الجيش: تلقين مصر الفرنسية الحديثة." (ترجمتنا)

و ذات الأمر حدث في الجزائر، حيث اعتمدت الحكومة الفرنسية سياسة إدماج و إقصاء لجملة الخصوصيات اللغوية، و الثقافية للجزائريين، مزيجة اللغة العربية و مستبدلة إياها باللغة الفرنسية، ممّا مهّد لظهور جيل اختار " فم الذئب " كوسيلة للتعبير، و من بين هؤلاء الأدباء نجد محمد ديب، مالك حداد، مولد فرعون، آسيا جبار، وسيني الأعرج، الطاهر بن جلّون أمين الزاوي، كاتب ياسين، أمين معلوف و غيرهم من المؤلفين الذين قرّروا الإبداع بلغة "فولتير و موليير" رغم أنّهم ينحدرون من بيئات و ثقافات بعيدة كل البعد عن اللغة الفرنسية.

ومن أهمّ السمات التي تميّز الأدب الجزائري ما بعد الكولونيالي:

أ-الفرنكوفونية:

يقصد بالفرنكوفونية لغة صفة تطلق على كل شخص أو شعب أو منطقة تستعمل اللغة الفرنسية إلى جانب اللغة الأم، و هو حال المستعمرات الفرنسية التي ساد فيها التعليم باللغة الفرنسية كسبيل لنشر الثقافة الفرنسية، و كضمان لبقاء الشعوب المستعمرة تابعة فكريا و ثقافيا للهيمنة الفرنسية التي اتخذت الفرنكوفونية سلاحا لطمس الهوية على حدّ تعبير زينب صالح الطحان حين قال: "يمكن إدراك معنى الفرنكوفونية بمردوده المتعدّد الجوانب، و مدى ارتباطه بالجانب السياسي الاستعماري و الجانب الفرنسي الثقافي، و الجانب التثويري و اقتلاع هوية الشعوب التي تمّ استعمارها. إذ أنّ مصطلح فرنكوفونية أصبح يتضمّن معنى الآلة الحربية التي تساعد على الحفاظ على المستعمرات السابقة." (الطحان، 2013).

و لقد شملت الفرنكوفونية المجال الأدبي، حيث ظهر الأدب المكتوب باللغة الفرنسية الذي أسال الكثير من الحبر حول هويته الفعلية، حيث تعدّدت تسمياته فتارة يسمى " أدب الجنوب " و تارة يطلق عليه " الأدب الناشئ "، و طورا يدعى " الأدب المكتوب باللغة الفرنسية "، و لا شكّ في أنّ تعدّد تسمياته تعود إلى كونه " غير وطني " بوصفه يجسّد واقعا لا علاقة له باللغة المكتوب بها، الأمر الذي عرقل مسار رقيه لبلوغ مصاف الآداب العالمية رغم خصوصياته الأدبية و الفنية و الإبداعية المتميزة، و يرجع هذا بالدرجة الأولى إلى استعمالهم للغة الفرنسية استعمالا خاصا؛ ففرنسيّتهم " محاكاة على المقاس " حيث لا ترقى لمستوى لغة السيدة بوفاري Madame Bovary أو للغة غي دوموباسون Guy De Maupassant، بل هي لغة " هجينة " يحاول من خلالها " الأنا " تحدي " الآخر " و مقاومته.

ب- الهوية المنشطرة:

مما لا جدال فيه، أنّ موضوع هوية الأدب ما بعد الكولونيالي يعتريه نوع من الضبابية، فالحديث عن الهوية يشمل جانبين: أولهما هوية الأدب في حدّ ذاته، و ثانيهما هوية المؤلف الذي يكتب باللغة الفرنسية.

يعدّ الأدب الفرنكوفوني ما بعد الكولونيالي جزء من الأدب الفرنسي، بيد أنّه يعاني من " الغربة " في الساحة الأدبية الفرنسية، فنوعية المواضيع التي يتناولها، و البيانات الاجتماعية التي يصوّرها، و الرسائل المضمرّة التي يمرّرها، و الثقافة التي يعبر عنها، جعل النقاد الفرنسيين يرفضونه و لا يعتبرونه " أدبا فرنسيا " حيث يقول المؤلف مالك حدّاد بهذا الخصوص: " إنّ أكبر النقاد في فرنسا يرون أنّ أدبكم هو أدب أجنبي يختلف اختلافا كبيرا عن الأدب الفرنسي، أو بالأحرى يستعملون الصيغة التالية: الأدب الفرنسي ذو التعبير الجزائري. " (قادة، 1999)

يصاحب تحبير الكتاب الفرنكوفونيون باللغة الفرنسية في أعمالهم الأدبية، إشكالا يتجاوز البعد اللساني و اللغوي، كي يشمل بعدا نفسيا عميقا تنيره مسألة الهوية، حيث ينظر إليهم بنو مجتمعهم بعين الخائن الذي اتخذ لغة المستعمر بدلا من لغته الأم في التعبير عن واقعهم المعاش، كما أنهم اتهموا بإعجابهم بكل ما هو غربي على حدّ تعبير عبد المالك مرتاض حين قال: " لقد ظلّ هؤلاء الكتاب في معظمهم معجبين كل الإعجاب بالحضارة الفرنسية بوجه خاص، و الحضارة الغربية بوجه عام، جاهلين بالتاريخ العربي غير ملمين بمعالم الحضارة الإسلامية، إذ أنّي لهم أن يدركوا شيئا من ذلك وهم محرومون من الإلمام الكافي بلغتهم التي بواسطتها يطلعون على التراث العربي اطلاقا حقيقيا خاليا من الشوائب و الشرور. " (مرتاض، 1983)

هذا من جهة، و من جهة ثانية يعاني الأديب الفرنكوفوني من عدم تقدير أعماله في الساحة الأدبية الفرنسية بسبب تلك النظرة الهامشية ذات الخلفية التاريخية التي تقزّم و تهتمش كل ما هو غير فرنسي حتى و إن تمكّن من ناصية اللغة الفرنسية، و أجاد منطقها.

لا يختلف إثنان في أنّ الهوية اللسانية هي الدعامة الأساسية في بناء الهوية الفردية؛ و لما كانت اللغة هي نتاج للثقافة، أضحت اللغة معيارا من معايير الهوية و الإنتماء، و هذا ما يضع المؤلف -الذي يعبر عن ثقافته بلغة مجتمع "آخر" يختلف عنه في العادات و التقاليد- في موضع التائه الضال الذي يجد نفسه يسبح بين ضفتين مختلفتين، و يتأرجح بين عالمين مختلفين، مما يخلق لديه هوية مزدوجة في "عالم" المايين بين " أو ما يسميه باختين Bakhtine " فضاء العتبة " (الباقى، 2022) حيث تلازمه أثناء إنتاجه الأدبي حالة من التوتر و القلق، و هو ما تسميه الباحثة ليز غوفان بـ "أدب عدم الارتياح" (Lise, La fabrique de la langue, 2004).

ج-الهجنة اللغوية و الهجنة الثقافية:

يعدّ الأدب ما بعد الكولونيالي وليد الظروف التاريخية التي مرّت بها الدول التي عانت من سيطرة الامبراطوريات العظمى ابتداء من القرن التاسع عشر، حيث كان الهدف الأسمى لهذه الأخيرة الحفاظ على هيمنتها بشتى الطرق، مستعملة اللغة كوسيلة للتغلغل في أعماق البنى الثقافية للشعوب التي استعمرتها، وكان نتاج ذلك حدوث تمازج بين اللغات و تلاقح بين الثقافات، أضفى على النصوص الأدبية المكتوبة بلغة " الآخر " خصوصية أسهمت في تغيير تلك

الصورة النمطية لطبيعة العلاقة التي تربط المركز (الفرنسي) بتوابعه (الدول المستعمرة)، حيث أضحت هذه النصوص نصوصاً "هجينة" "مختلطة" لغوياً وثقافياً.

تتجسد الهجنة اللغوية في الأدب الجزائري الفرنكوفوني من خلال إدراج الكتاب الجزائريين لبعض الكلمات العربية في كتاباتهم من أجل التعبير عن عوالمهم الخاصة بلغتهم الأم، الأمر الذي عرّض اللغة الفرنسية لتأثير كبير، حيث لم تعد لغة "خالصة" أو "نقية" بل أصبحت محلّ تصرف هؤلاء، إذ تمكنوا من تفتيحها وجعلوها خاضعة لمقتضيات ثقافتهم الأصلية، أمّا الهجنة الثقافية، فتتجلى من خلال تأرجح الكاتب الجزائري ما بعد الكولونيالي بين ثقافتين مختلفتين تتعايشان وتتفاعلان مع بعضهما، محدثتان تداخل غريب يلغي تلك الهوية الفاصلة بين الثقافات والهويات، ويخلق أشكالاً ثقافية جديدة في ظلّ التمازج واحترام الغيرية.

4- الترجمة في السياق ما بعد الكولونيالي:

لطالما اعتبرت الترجمة جزءاً لا يتجزأ من المشاريع الكولونيالية في شتى أنحاء العالم، فلقد استعملت كأداة للهيمنة، فيما كانت الأيديولوجيا الإنسانية تعتبرها مجرد وسيلة اتصال وتمازج بين مختلف شعوب المعمورة، والحديث عن الترجمة في الدراسات ما بعد الكولونيالية، يتعدى الإشكالات اللغوية والمعضلات فوق-اللسانية التي قد تعثر مسار أي مترجم، كي يلتفت حول السياسات المنتهجة في الترجمة، وكيفية تحوّل الفعل الترجمي من مجرد فعل تمازجي إلى فعل مناهض للقمع والاضطهاد، لا سيما بعد فترة الاستعمار حيث تمثل الهدف من الترجمة في السياق ما بعد الكولونيالي في إضفاء قيمة وإلغاء الأهمية لعنصر "الاختلاف" وإلغاء الفروق التقليدية التي وضعت بين اللغات الصافية واللهجات (Zuzana, 2014) ذلك أنّ اللغات تتفاعل وتحتك ببعضها دائماً، لا سيما في المناطق المستعمرة، حيث أدّى التواصل البين-لغوي إلى امتزاج ثقافي.

لقد أدّت الترجمة دوراً رئيساً وحيوياً في إعادة تحديد معاني الثقافة، و الأيديولوجيا والسياسة... إلخ، واتّخذها المترجمون وسيلة لتصفية مخلفات الاستعمار، من خلال إنتاج خطابات جديدة وتقديم صورة مغايرة للثقافات المحلية غير تلك الصورة "السلبية" التي ظلّت ملازمة لها طيلة الفترة الاستعمارية، ولقد حصر الباحث روبنسون Robinson أدوار الترجمة في الدراسات ما بعد الكولونيالية كما يلي:

- دورها كقناة للاستعمار، بموازاة التعليم والسيطرة الصريحة أو المقنعة على الأسواق والمؤسسات وبالارتباط معهما.
- دورها كدأري لضروب عدم التكافؤ الثقافي المتواصلة بعد انهيار الكولونيالية.
- دورها في تصفية الاستعمار. (دوغلان، 2005)

و يمكننا القول بأنّ دراسات الترجمة ما بعد الكولونيالية، ركّزت جلّ اهتمامها على الجانب الأيديولوجي حتى كادت تصبح دراسات انثروبولوجية أو تاريخية، كما أنّ الباحثين في الحقل الترجمي منحوا الأفضلية للترجمات التغريبية (الترجمات التي تبقى على الطابع الأجنبي للنصوص) كأنسب منهج لترجمة الخطاب ما بعد الكولونيالي لما يكتسبه من أهمية في إثراء الثقافات والتعريف بها، ذلك أنّ القارئ يتطلّع من خلال قراءته للترجمة إلى الولوج إلى عالم "الأخر" بكلّ اختلافه و غرابته، حيث ينتابه فضول في التعرف على كلّ مقومات الثقافة المصدرية في بيئتها الخاصة، الأمر الذي يجعل المترجم يسعى إلى المحافظة على الصبغة الأجنبية للنص بغية الحفاظ على الاختلافات الثقافية واللغوية التي تنقل القارئ إلى عالم النص المصدر فيكتشف خصوصيات "الأخر" ويستقبله بوصفه متميّزاً عنه، وكثيراً ما يعتمد المترجمون منهج التغريب في الترجمة لما يتضمنه من إثراء للثقافة واللغة الأجنبية من جهة، ولما يمكنهم من تحقيق عنصر الأمانة للأصل ومن ثمة الصّدق مع القارئ من جهة ثانية، بيد أنّ الأمر يختلف لدى ترجمة الأدب المكتوب بلغة غير لغة ثقافته الأصلية، كما هو حال الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، حيث يعتمد مؤلفوه على موروّثهم الثقافي والتاريخي في التعبير عن عوالمهم الروائية، ممّا يجعل الرواية تسلك طريقاً ممتعاً محطّته الأخيرة أصلها، وهذا ما يسهّل عمل المترجم الذي يعتمد في ترجمته لهذا النوع من النصوص منهج التوطين التي سنفصّل في الحديث عنه في العنصر الموالي.

يمكننا القول باختصار، بأنّ الترجمة في السياق ما بعد الكولونيالي عرفت انزياحاً إيديولوجياً حيث أصبحت وسيلة يرمي من خلالها التخلّص من الإرث الاستعماري، والهيمنة الثقافية الامبريالية.

5- الترجمة التوطينية كاستراتيجية للعودة إلى الأصل:

لقد كان للظروف الاجتماعية والثقافية والسياسية التي عاشها الأدباء الجزائريين خلال فترة الاستعمار الفرنسي، أثرا بليغا على إبداعاتهم الأدبية؛ حيث اقترض بعضهم لغة المركز الأوروبي الكولونيالي كأداة للكتابة و كوسيلة لإثبات "الأنا" في ظل هيمنة "الآخر" و سيطرته، و مما لا ريب فيه أنّ هذا النوع من الكتابة قد أسال الكثير من الحبر لا سيما في المضممار الترجمي، خصوصا فيما يتعلّق بالاستراتيجيات التي يعتمدها المترجم الذي ينقلها إلى اللغة العربية في إرجاعها لأصلها بعد هجرتها بفعل التأليف باللغة الفرنسية، و ما يمكن قوله بهذا الخصوص هو أنّ المترجم يحرص قدر المستطاع على إنتاج ترجمات سلسلة وجعلها نسخة شفافة عن أصلها، ذلك أنّ المعضلة الثقافية لا تواجهه قطّ بسبب تشاركه مع الكاتب الفرنكوفوني الثقافة ذاتها، و لعلّ أنسب استراتيجية تعتمد في هذه الحالة هي استراتيجية التوطين La Domestication.

الترجمة التوطينية هي محاولة المترجم إنتاج نص شفاف تجعله يبدو وكأنّه نص أصلي، لقد تم اقتراح مصطلح التوطين من قبل المنظر و المترجم الأمريكي لورانس فينوتي Lawrence Venuti حيث عرفه كما يلي:

« Domestication refers to an ethnocentric reduction of the foreign text to target language cultural values, bringing the author back home. » (Yang, 2010)

"تحليل إستراتيجية التوطين، إلى الإذابة المتمركزة عرقيا للنص الأجنبي في القيم الثقافية للغة المستهدفة أي إرجاع المؤلف إلى موطنه." (ترجمتنا)

فإستراتيجية التوطين تعني تحويل القيم التي يتضمنها النص الأصلي، إلى قيم الثقافة المترجم إليها فتتقص من "غرابته" و من سماته الأجنبية، كي يتوافق و ثقافة القارئ الذي قد لا يعتبر النص المترجم ترجمة، بل ينظر إليه على أنه نص مكتوب أصلا باللغة المنقول إليها، تماما كما لو أنه منتج محلي. من أهم السمات التي تميّز هذا النوع من الترجمات، هي الشفافية و السلسلة التي تمحي صفة "العمل المترجم"، كي يصبح نصا جديدا تم تأليفه باللغة المترجم إليها، وهذا ما يؤكده نورمان شابيرو Norman Shapiro بقوله:

« I see translation as the attempt to produce a text so transparent that it does not seem to be translated. A good translator is like a pane of glass, you only notice that it is there, when there are little imperfections, scratches, bubbles. Ideally there should not be any. » (Vinuti, 1995)

"أنا أرى الترجمة على أنها محاولة لإنتاج نص شفاف إلى درجة تجعله لا يبدو مترجما، فالمترجم الكفاء هو بمثابة قطعة زجاج، فلا يمكننا الملاحظة بأن النص المترجم "ترجمة" إلا إذا كانت هناك بعض النقائص، و الحزّات، و الزيادات، لكن من المفروض أن لا تكون إذا تم انجاز العمل بإتقان." (ترجمتنا)

و من دعاء منهج التوطين في الترجمة نجد أتباع نظرية النظم المتعدّدة Théorie du polysystème التي تأسّست على يد إيفين زهار، الذي يؤكّد على ضرورة دراسة الأعمال الأدبية ضمن نظام أدبي متكامل، دون عزلها عن السياقات التي تحيط بها، ذلك أنّ الأدب جزء من إطار عام يضمّ المجتمع، و الثقافة، و الفنّ و التاريخ، و أقرّ بأنّ الأعمال الأدبية المترجمة تشغل ضمن نظام معيّن، و ذلك:

(1) أنّ اللغة المستقبلية تنتقي ما تترجمه من أعمال.

(2) أنّ معايير الترجمة، و كذا طريقتها و إستراتيجيتها تتأثر بما يحيط بها من نظام عام. (Jeremy, 2016)

و يختلف تأثير هذا النظام الثانوي (الأدب المترجم) حسب محورين أساسيين:

- قد يحتلّ الأدب المترجم محورا ثانويا و هامشيا ضمن هذا النظام المتعدّد (الواقع الأدبي العام للغة المستهدفة).
- كما يمكن أن يحتلّ الأدب المترجم محورا رئيسيا ضمن النظام المتعدّد في اللغة المستقبلية، و هنا يصبح فاعلا و نشطا، بل يمكن أن يجد لنفسه مركزا ضمن هذا النظام المتعدّد المستقبلي.

يحدّد إثمار إيفين زهار ثلاثة سياقات يمكن أن يجد فيها الأدب المترجم مركزا له، وهي:

- أ- في حالة أدب في طور النشوء.
- ب- في حالة أدب هامشي، أو ضعيف، أو الإثنيين معا.
- ت- في حالة أدب يعاني من أوقات عصيبة أو نقائص أدبية.

هذا ما ينطبق تماما مع الأدب ما بعد الكولونيالي، حيث أدت الترجمة دورا محوريا في تصفية الإرث الكولونيالي من خلال خلق توازن جديد بين مختلف القوى الثقافية، و تغيير مواطن " الهيمنة " بين الحاكم و المحكوم قصد تحطيم الثنائيات العنصرية و بناء الهويات الوطنية، فترجم النصوص الأدبية الفرنكوفونية إلى اللغة العربية يكون بمثابة الجسر الذي تمر من خلاله الثقافة الأصلية كي تصل إلى موطنها الأم بعد هجرتها إلى الضفة الأخرى بفعل الكتابة بلغة " الآخر " التي تعدّ في الأساس ترجمة أولى سمحت للأديب الفرنكوفوني بنقل ثقافته العربية إلى فضاء اللغة الفرنسية، و رجوع النص إلى مصدره أو منبعه هو رجوع متميز إلى " الذات " التي كادت تضيق في غياهب لغة و ثقافة الذات الأوروبية.

الخاتمة:

تعدّ ترجمة الخطاب ما بعد الكولونيالي الوارد في النصوص الأدبية المكتوبة باللغة الفرنسية بمثابة إعادة كتابة لتاريخ الأمم المضطهدة الذي تطلّح جرّاء الأفعال الكولونيالية الاستعمارية التي مارسها المستعمر من أجل طمس الهوية الوطنية للشعوب المستعمرة، و تحقير اللغات المحلية، و ذلك من خلال تحرير الثقافات المهمّشة و محاولة التعريف بها، و تصحيح تلك الصورة السلبية التي ظلّت تلازمها طيلة فترة الهيمنة الامبريالية؛ إذ استعملت ترجمة هذه الآثار الأدبية المكتوبة بلغة العدو، كأداة للمقاومة الثقافية من أجل إثبات وجود الذات و تأكيد الهوية و الإنتماء بغية استرجاع الثقافة القومية لمكانتها بين غيرها من الثقافات، و تغيير مركزها " الثانوي " بعد استيلاء الثقافة الأوروبية على المركز " الرئيسي ".

أدت الترجمة في السياق ما بعد الكولونيالي أدوارا معقّدة و متداخلة، حيث كانت في الماضي أداة للغزو الفكري، ثم استعملت كقناة يتواصل من خلالها المستعمر و المستعمر في الزمن الحاضر بعد انقضاء فترة الاحتلال، كي تصبح وسيلة لتصفية الإرث الكولونيالي مستقبلا.

و ينتهج المترجمون عادة استراتيجية التوطين في نقل النصوص الأدبية المكتوبة باللغة الفرنسية إلى اللغة العربية، حيث يحرصون على الإبقاء على جملة الخصائص الثقافية الواردة ضمنها، كي يتسنى للقارئ تلقيها بكل سلاسة و شفافية، كيف لا و هي تعود إلى أصلها و يعاد احتضانها من قبل بينتها الأم، فالثقافة المعبر عنها في الخطاب ما بعد الكولونيالي تكون بمثابة الغريب المغرب الذي يعود إلى دياره بعد هجرته إلى وطن آخر، فيستعيد بذلك كامل معالم هويته، و يتعرّز وجوده، و يؤكّد انتمائه.

قائمة المراجع و المصادر:

1. أشكروفت بيل و آخرون، 2006، الرد بالكتابة، ترجمة: شهرت العالم، المنظمة العربية للترجمة بيروت/لبنان.
2. روبينسون دوغلاس، 2009، الترجمة و الإمبراطورية: الدراسات ما بعد الكولونيالية، مجلة نزوى، مجلد 45.
3. سعيد ادوارد، 2000، العالم و النص و الناقد، اتحاد الكتاب العربي، ترجمة: محفوظ عبد الكريم، دمشق.
4. سهيل نجم، 2009، في الحداثة و ما بعد الحداثة (دراسات و تعريفات)، أزمنة للنشر و التوزيع، ط01، الأردن.
5. لمياء عيشونة، أداب ما بعد الكولونيالية، مجلة العهدة في اللسانيات و تحليل الخطاب.
6. زينب صالح الطحان، الأدب اللبناني المكتوب باللغة الفرنسية و أزمة الهوية الوطنية، دار العودة، بيروت.
7. قادة مبروك، 1999، إشكالية الإنتماء القومي للأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، مجلة إنسانيات.
8. عبد المالك مرتاض، نهضة الأدب العربي في الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر.
9. عبد الباقي جريدي، 2022، فضاء العتبة فضاء نصيا و فضاء تخييليا، مجلة الخطاب.

10. Berman, A. (1999). La traduction et la lettre ou l'Auberge du lointain. Paris: Seuil.

11. Jeremy, M. (2016). Introducing Translation Studies: Theories and Applications (éd. 04). New York: Routledge..

12. Lise, G. (2004). La fabrique de la langue. Paris: Seuil.
13. Lise, G. (2004). La fabrique de la langue: De François Rabelais à Rejean Ducharme. Paris: Seuil coll " Points.."
14. Lise, G. (2000). Langagement: l'écrivain et la langue au Québec. Revue internationale d'études Québécoises..
15. Said, E. (2005). L'orientalisme L'orient créé par l'occident. Paris: Seuil.
16. Vinuti, L. (1995). The Translator's Invisibility: A History of Translation. United Kingdom: Routledge..
17. Wenfen, Y. (2010, January). Brief Study On Domestication and Foreignization in Translation. Journal of Language Teaching and Research , 01.
18. Zuzana, R. (2014). Les Théories de la traduction. Masarykova Univerzita Brno..